المشرق

خطط الشام

نظر انتقادي لحضرة الآب لامنس اليسوعي

ذكرنا في العدد السابق (ص ٥٥٦) ظهور الجزء الاوّل من هذا التأليف واشرنا الى ما عن لنا فيه من الملحوظات لمدّنا تقدمها المؤلف البارع وقد تولّى هذا الانتقاد حضرة الاب لامنس وليس من يجهل طول باعه في معرفة تاريخ الشام ل. ش

هذا تاريخ جديد للشام لا نقول ظاهر على ما طُبع سابقاً في الغربية من هذا القبيل. واوّل ما يدعو القارئ الى اعتباره اسم مؤلفه ومقامهُ اعني به السيّد كرد علي رئيس المجمع العلميّ العربي في دمشق

١ ملحوظات عمومية

ويلوح من اوّل الكتاب انّ جناب السيّد مصنّفه سعى الى جمع مواده الواسعة من المخطوطات والمطبوعات المتعدّدة. فانّ في صدره قائمة مطوّلة عدّد فيها تلك التآليف البالغة ٦٩٥ عدداً. وهذه بلا مراء تحفةٌ جديدة لم يسبقهُ اليها كتبتنا. وكيف لا يُسَرّ المطّلع على تلك اللائحة اذ يرى بعد تعداد المصادر العربيّة والتركيّة التي استند اليها اسماء مئة تأليف لكتبة الفرنج استقى المؤلّف من مواردها

على انّ هذا التأثير الطيّب في ذهن القرّاء يضعف نوعاً اذا ما دقّقوا النظر في القائمة المذكورة. فلا يكفي ذكر بعض التآليف الاوربيّة دون الدلالة على الطبعة التي روى عنها الكاتب مع ذكر عدد مجلّداتها. ثمّ انّ بين المطبوعات الاوربية المذكورة

ما لم يَعُد لهُ قيمة البتَّة. فانَّ معجم بوليه (Bouillet) اصبح من المنشورات المنسيَّة. وليس بين العلماء المستشرقين حاضراً من يستند الى تاريخ العرب لسديليو او الى تأليف غستاف لوبون الذي هو معروف كمؤلف اجتماعي ليس كعالم باحوال الشرق. وقس عليهِ تآليف مثلها كان الضرب عنها اولى وافضل. وعلى خلاف ذلك نرى جنابهُ ساكتاً عن عشرات من الكتب الجليلة التي نشرهـا عن الشرق عموماً واحوال الشام خصوصاً كثيرون من المستشرقين في الالمانيَّة والانكليزيَّة والايطاليَّة. ألا يَرى مثلاً السيد كرد علي ما افـادنا البرنس كايتاني (Caetani) في الثلثة المجلَّـدات الضخمة (Annali dell'Islam) التي جمع فيها اقدم واصدق المعلومات عن فتح العرب للشام. وكذلك لا يستطيع حاضراً احد الكتبة ان يوضح تاريخ الدولة الاموية ما لم يطلع على ما كتبهُ في هذا الصدد المستشرق الالماني ڤلهوسن (Wellhausen). ألعـل مكتبة المجمع العلمي في دمشق خالية من تأليف الدوق كايتاني وهو احد اعضاء ذاك المجمع المنيف. وقد اقام لهُ علماء القاهرة سنة ١٩٠٨ حفلةً حافلة حضرها النقير كاتب هذه الاسطر مع صاحب خطط الشام فكيف لم يذكرهُ في قائمة كتبهِ ؟

ومع ايراد جنابهِ لهذه القائمة العموميَّة كنَّـا وددنا لو اشار في ذيل كتابـهِ في المسائل الخصوصيَّة الى التآليف التي بنى عليها معلوماتهِ مع ذكر المجلَّد والصفحة فلا يكتفي بكلام عامّ كقولهِ «قال بعضهم» فيحرمنا السهولة لمراجعة تلك المصـادر المبهمة فلا نعلم من هو القائل أهو الطبري او احد المحدّثين كبيرو او سيديليو الخ. وكان الامر امسّ حاجةً في تأييد الآراء التي تفرَّد بها المؤلف او خالف العلماء الثقات فلو فعل لأثبت لنا انَّهُ سبرها بميار النظر والانتقاد فينجو من ملامة الذين ينكرون عليهِ مراجعتهُ للكتب التي اشار اليها

٢ ملحوظات خصوصيَّة

لا نحاجُّ السيد كرد علي في اطرائهِ للعنصر العربي بين عناصر الشام واسهـابهِ في بيان عظم شأنهِ فانَّ منزلتهُ بين قومهِ تشفع في بعض ما لهُ من المبالغات فضلاً عن انَّ غايته في تأليف كتابهِ انَّما هي رفع مقام ذلـك العنصر ادبيًّا وسياسيًّا. على انَّنـا لا نستطيع ضرب الصفح عما كتبهُ في الصفحة ٦٥ حيث ورد «قال وكانت دمشق منازل

غسّان» فمن هو هذا «القائل» وكيف يثبت ولاية ملوك غسّان على دمشق ولو راجع جنابهُ ما كتبناهُ في هذا الشأن وعن جلّق في ردّنا على الاديب امين خيرالله (المشرق ٣ [١٩٠٠]: ٤٣٨–٤٤٢ و٦٥٨–٦٦٢) لما عاد الى هذا البحث. ونفضّل عليهِ قولهُ في الشروط القاسية التي اشترطها العرب على اهل سوريّة فكتب عنها قائلًا انها:

«من قبيل ما يقرّرهُ الفاتحون من الاحكام العسكريّة او الادارية العرفيّة كما يسمّونها اليوم وهي لا يخفى تختلف باختلاف الامم والحالات وليست اصلًا من اصول الدين»

وقد استصوَبنا بالحري التمييز الذي صرّح بهِ الكاتب في كلامهِ عن المنازعات التي قامت بين العلويين والامويين (ص ١٦٦–١٦٧) فقال:

«الخلاف بين الامويين وخصومهم من العلويين... ما هو الّا خلاف سياسي نشأ من النزاع على الملك وليس من الدين في شيء»

الى آخر ما هناك من النظر الدقيق والتمحيص والتحقيق. وعلى ظنّنا انّ هذه الملحوظات السديدة لن تروق في اعين اصحاب الشيعة من كتبة العرفان وغيرهم إلّا انّ الانصاف دعا السيد كرد علي كما يقول الى درس المسئلة ليكشف الحقيقة دون ان يثير في النفوس احقادًا. وهذا ما اتّصلنا اليهِ بعد دروسنا المطوّلة عن خلافة معاوية وابنهِ يزيد. وجناب الكاتب مثلنا لم يحجم عن تبرير الخليفة يزيد بن معاوية والدفاع عنهُ (ص ٢٦٧) كما مدح ايضاً الامويين والمروانيين ورجالهم فقال (ص ١٦١) عن المروانيين:

«وكانت دولتهم عربيّة صرفة سارت مع المدنيّة اشواطًا مع اشتغالها بالفتح. وكان اكثر ملوك الامويين من الحزم والعلم وحسن السياسة والادارة على جانب عظيم، والرؤساء منهم معاوية وعبد الملك وهشام. وليس كالوليد في باب الاضطلاع بما يعمر البلاد، ولا مثل عمر بن عبد العزيز في تطهير المملكة من المظالم واحياء سُنن العدل والمراحم، ولا كسليمان في بُعد النظر، وما منهم إلّا العالم والشاعر والخطيب والسياسي، وقد فُتحت عليهم الاقطار فنشروا فيها اللغة والدين على أيسر سبيل، وهذا عمّا لم يوفّق الى مثلهِ غيرهم ووضعوا أسس النظام في الممالك التي دوّخوها وعرفوا ما يصلحها... هذا وقد كثر المخلصون لدولتهم الى اواخر ايامهم وقلّ المنتقضون عليهم المتوثّبون على خلافتهم»

ولهُ (في الصفحة ١٦٤) كلام في مشاهير الرجال في عهد بني اميّة وقوّادهم

فأحسن وانما أخذنا العجب من سكوته عن القائدين الكبيرين زياد بن ابيه والحجاج ابن يوسف . أفيكون خاف من انتقاد بعض المتطرفين الذين يجعلونها كهولة الصبيان ولهما ما لها من الفضل على الدولة الاموية

وقد سها جنابهُ بقوله (ص١٤٥) ان العذقونة التي غزا بها الروم يزيد بن معاوية «من قلقية» . والصواب انها مدينة خلقيدونية الواقعة بازاء الاستانة . وكذلك قرية بوصير التي بها قُتل الخليفة مروان بن محمد ليست في الصعيد (كما قال في الصفحة ١٦١) وانما هي قريبة من القاهرة (١ . وكذلك ورد في الصفحة ذاتها «انَّ عَلَم بني أُميَّة نُصب في بكين عاصمة الصين» وهو حادثٌ كنا نجهلهُ ويا ليت السيد كرد علي اثبت في ذيل الصفحة الى اي تأليف اسند هذا القول مع بيان مجلّده وصفحته

٣ ملحوظات اخرى

يؤخذ من كلام جناب مؤلف الخطط (ص ١٠١) ان عهد الملك الروماني كان نكبةً على بلاد الشام . ومن قولهِ ان الرومان :

«كثيرًا ما كانوا يبيعون ابناءهم (يريد ابناء اهل الشام) ليوفوا ما عليهم من الاموال وقد كثرت المظالم والسخرات والرقيق وجذه الايدي عمَّر الرومان ما عمَّروا من المعاهد والمصانع في الشام»

فمن يقرأ مثل هذا الكلام يخال لهُ انَّ سوريَّة اصبحت في اسوإ حال في زمن الدولة الرومانيَّة وفقدت كلّ حقوقها لديها وهذا لعمري حكمٌ يخالف كلّ ما كنَّا نعرفهُ عن احوال الشام وترقّيها في العهد الروماني حتى ان اوثق الكتبة يدعون طور الملك الروماني في الشام «عصر سوريَّة الذهبي» وعلى كل حال انهُ لأمرٌ مقرَّر انَّ بلاد الشام في ايَّام الرومان بلغت درجةً من الحضارة لم تعرفهُ قبلهم ولا بعدهم . كان عدد سكَّانها ضعف عددهِ في يومنا . وكانت تخومها تتَّسع يوماً بعد يوم بأمان ثغورهـا . كانت اراضيها مخصبةً وافرة الغلَّات ومدنها من اكبر المدن وارقاها تمدُّناً كانطاكية وافامية وقيسريَّة وتدمر وغيرها مما اصبح بعضها اليوم قرىً حقيرة او قاعاً بلقعاً . وكان

---

١) راجع كتابنا La Syrie I, 105

يزين تلك المدن آثار نفيسة يختار العقل لحسن جمالها وبراعة هندستها . وكانت قرى عامرة قد تشيّدت في البوادي القحلة التي لا يسكنها اليوم سوى الاعراب الرُّحّل وكان الامان باسطاً ظلّهُ على كل انحاء البلاد . ومما يشهد على فضلهم ازدهار الفنون الجميلة على مثال ارقى الشعوب منها الابنية الفخمة والمسارح واقواس الظفر التي لا تزال بقاياها تنطق برقي تلك الاعصار وبعلوّ همّة الرومان

كانت الدول السابقة قليلة الاهتمام بالابنية ذات المنافع العامّة فسَدَّ الرومان هذا الخلل بفتح الاقنية لجرّ المياه الى المدن العامرة ومدُّوا الجسور فوق الانهار وفتحوا مرافئ للسُّفن او وسّعوا المرافئ القديمة . وكل هذه الآثار الجليلة استفادت منها الدول التي بعدهم كدول العرب والمماليك والاتراك ويا ليتها عرفت ان تحفظها وتصونها من الخراب الذي استولى عليها . وهذا قول صاحب خطط الشام بالضياع والقرى المدمّرة التي تُرى آثارها في جهات سوريّة الشرقيّة خصوصاً أليس الزمان بُناتها ؟ . ذكر التاريخ رجلاً من عرب حوران جلس على العرش القياصرة كما تبوّأتهُ دولةٌ سوريّة حمصيّة الاصل فهل يمكن جنابهُ ان يذكر لنا رجلاً سوريّ الاصل جلس على عرش سلاطين الاتراك او خليفةً سوريًا بين بني اميّة ؟ فيا ترى كيف جعلتَ سورية في هذا الحد من الانحطاط في عهد الرومان وكل شيء ينطق برقيّها وعظمتها من عدد سكّان وخصب زراعة ورواج صناعة ومدن عامرة وغنى وبَذْخ في المعاش وامان وترشّح الى اسمى المناصب في الدولة !. فان كان هذا الانحطاط فكيف يكون الارتقاء ؟ وما هي شعائر الرفعة والحضارة ؟

هذا ثمّ اننا في بعض مقالاتنا التي نشرناها في المشرق (٢٠[١٩٢٢] : ١٦٤—١٧٢) كنّا حذّرنا (ص ١٧٠) السيّد كرد علي من ارهام الارقام في مؤرخي العرب وبيّنا ما هم في ذلك من العجائب والغرائب التي تنفي كلّ الحقائق التاريخيّة . وكأنّ كلامنا لم يلقَ عند جنابه اذناً واعية . فانهُ عند ذكره فتوح العرب للشام يزعم ان عدد الجيوش البوزنطيّة كان بالفاً ٢٤٠،٠٠٠ حتى ٤٠٠،٠٠٠ (خطط الشام ص١١٢ و١١٦) . وهذا العدد من الجند لم تكد الدولة الرومانيّة كلّها تبلغهُ في اوج عزّها على عهد اوغسطس قيصر . على اننا نشكر حضرتهُ لضربهِ الصفح عن ملايين الكتب

التي زعم بعضهم سابقاً ان الصليبيين اتلفوها عند فتحهم لطرابلس (١ وانما اكتفى بنقل ما كتبهُ القلانسي في ذيل تاريخ دمشق (ص ١٢٥) وهو احد المعاصرين لفتح طرابلس — وكان حفظهُ الله أجاد لو اصلح ما كتبهُ سابقاً عن قتل الصليبيين لمئة الف رجل من اهل معرَّة النعمان وبيَّنا لهُ غلوَّهُ الظاهر في هذا الاحصاء الباطل (المشرق ٢٠ : ١٩٢٢) ونقلنا لهُ كلام ابي العلاء المعرّي وهو اشهر من نار على علم عن حقارة وطنهِ (المشرق ٢١ : ٥٥٧) لا بل زاد جنايهُ في الطين بلَّة فذكر (ص ٢٨٠) دخول الفرنج الى المعرَّة وقال :

» فاستولوا عليها ووضعوا السيف في اهلها فقتلوا منها ما يزيد على مئة الف انسان في اكثر الروايات (كذا) وسبَوا مثلهم . «

فجعل مدينة المعرَّة الصغيرة من أمهات المدن كدمشق وانطاكية . وكنَّا استعظمنا عدد قتلى المعرَّة الذي ذكرهُ ابن ابي شحنة (ص ٢١٧) وهو هناك عشرون الفاً واليعقوبي يقول عنها في جغرافيَّتهِ (ص ٣٢٤) انها كانت مدينة خراباً . فما قولنا الآن من مئة الف قتيل يُضاف اليهم مائة الف اسير فيرى القرَّاء كيف ان حسابنا [illegible] انها كانت بلدة حقيرة (une bicoque) . ولا نزيد بقولنا هذا ان نرمي الصليبيين لانهم كانوا يجرون في ذلك الزمان على سُنَن الدول المحاربة . ولم يكن العرب من هذا القبيل ألطف من سواهم في معاملتهم الأسرى الذين لم يمكنهم ان يفدوا نفسهم بالمال او لم يرضوا بجحود دينهم . ومن اراد الوقوف على تلك المعاملات فليراجع اصدق واقدم تواريخ الاسلام اعني تاريخ ابي جرير الطبري (الجزء الثاني ص ٧٢٣ و٧٥٠ و٨٥٣ و١٢٠٧ و١٣٣٨ و١٥٩١ و١٩١٠ الخ الخ) يجد هناك من انواع الفظاظة ما يشفع باعمال الصليبيين

ولمَّا كانت اميال جناب صاحب خطط الشام على هذا المنوال فلا عجب ان نراهُ مبالغاً في كثير من ارقامهِ . فانَّهُ مثلاً (ص ٨٥) يجعل عدد المسلمين حاضراً ٣٥٠ مليوناً ولعلَّهُ رأى في كلامهِ اعتدالاً بالنسبة الى الـ ٣٦٠ مليوناً المذكورة في مجلَّة المنار

١) اطلب في المشرق ٢٠ [١٩٢٢] : ٤٠٧-٤١٣ مقالتنا التي عنوانها «الصليبيون ومكتبة طرابلس»

(٥ : ٦٠٥–٦٠٧) وفي كلا القولين غلوّ ظاهر ينيف على مئة مليون فانّ مجلّة العالم الاسلامي (Moslem World, 1923, p. 283) استنـاداً الى ادقّ احصاء أُجري مؤخرًا تجعل عدد المسلمين نحو ٢٣٤ مليوناً . كذلك الناطقون بالضاد الـذين جعل السيّد كرد علي هناك عددهم ٦٥ مليوناً لعلّهم لا يزيدون على نصف هذا العدد. فانّ العلّامة لويس ماسينيون (L. Massignon) المعروف بحبهِ العظيم للمسلمين يؤكد في مجلة العالم الاسلامي (Revue du Monde Musulman LVII p. 3) انّ العرب الاصليين يبلغون فقط ١٢ مليوناً وان المستعربين ٣٤ مليوناً . وعندنا انّ في احصائهِ هذا بعض المغالاة . وعلى كل حال لا يمكننا ان نبدي حكماً فصلاً في هذه الاحصاءات الى ان تتمّ بموجب قوانين مدقّقة

ولم كنّا نودّ لو ذيّل جناب الكاتب خططهُ ببعض افادات تاريخيّة وجغرافيّـة على احداث رواها على علّاتها وجاء فيها اسماء ملوك او قوّاد اجانب لم يُعرف لهم خبر الّا في اقاصيص لا يوثق بها كالروايات المنسوبة للواقدي وغيرهِ . فمن هو مثـلاً ملك الروم قسطومس (ص ١٣٤) مكاتب معـاوية ؟ ومن هو (ص ١٤٩–١٥٠) قلقط البطريق ؟ ومَن من الرواة الثقات روى اخبارهُ ؟ وكذلك بعض اخبار المَرَدة رواها عن كتبة محدثين لا نجد لها سنداً في مؤرّخ صادق . ومثلها بعض ما رواهُ عن الصليبيّين كان يحتاج الى مزيد انتقاد وانصاف

هذا ولا يمكننا ان نتتبّع اقوال المؤلف صفحةً صفحة لاثبات او نفي كلامهِ وفي ما قلنا كفاية ليرى القرّاء انّ في كتاب الخطط ما يستوجب النظر وإعمال الفكر قبل الاستسلام الى مضامينهِ جزافاً . وهذا لا يمنعنا ان نقرّ بفضل كاتبهِ الذي تأنّق في انشائهِ وأحسن تقاسيم تأليفهِ وروى الاخبار بأسلوب واضح سهل المنال . ورجاؤنا ان يواصل الكاتب عملهُ بما عُرف من النشاط فيزيدهُ حسناً ليجـد فيهِ العلماء ما يؤملون من المعلومات الصادقة المبنيّة على الحقيقة التي هي وحدها ضالّة الكتّاب المنشودة . ولنا في مقدّمة السيّد وتقدمة كتابهِ الى احد مشاهير ادباء العصر حضرة احمد تيمور باشا افضل ضمين لنجاح عملهِ